مكتبة

يهودا شينهاف
في مصيدة الخط الأخضر

الناشر: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) رام الله ٢٠١١

يفكك يهودا شينهاف في هذا الكتاب أسطورة الخط الأخضر. إن تعبير أسطورة مناسب جدا لهذا الغرض. فالأسطورة، في التعريف العام، ليست حدثاً خرافيا من نبت الخيال، بل ذاكرة مشوّشة عن حدث غامض وقع في زمن بعيد. بيد أن تشوّش الذاكرة في العالم القديم، وفي الأزمنة الحديثة (حيث تسهم وسائل الإعلام والاتصال في توليد أساطير جديدة بشكل دائم) لم يكن بريئاً ومتعالياً على الواقع. وفي هذا ما يبرر البحث عمّا سكتت عنه الأسطورة.

وما سكتت عنه الأسطورة – بقدر ما يتعلّق الأمر بالفكرة المركزية في هذا الكتاب – أن الديمقراطية الإسرائيلية تحتفظ «في خزانتها بهياكل عظمية تتوعد بالظهور إلى العلن لتهدد أخلاقيتها وشرعيتها».

في الروايات القوطية التي عرفتها الآداب الأوروبية في القرن التاسع عشر، والتي تدور أحداثها في قلاع قديمة، ومناطق نائية، وبيوت مأهولة بالأشباح والأسرار، غالباً ما تنفتح العقدة الروائية عندما يعثر الفاعل الروائي على الهيكل العظمي في غرف مهجورة موصدة الأبواب، وراء جدران إضافية، أو في خزائن حديدية ثقيلة.

فما هي تلك الهياكل العظمية التي تقض مضجع الديمقراطية الإسرائيلية؟

إنها أسطورة إسرائيل ما قبل العام ١٩٦٧. الأسطورة التي أسهم اليسار والليبراليون الإسرائيليون في صياغتها وترويجها إلى حد أصبحت معه جزءاً من خطاب التيار الرئيس، المهيمن على وسائل الإعلام في إسرائيل والغرب على حد سواء. وفحوى هذه الأسطورة

إن المجتمع والدولة في إسرائيل ما قبل ذلك العام كانا مثاليين، وما طرأ عليهما بعده من تحوّلات راديكالية في اتجاه اليمين، إنما نجمت عن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، وصعود حركة الاستيطان. وغالباً ما ينتقد مؤيدو هذه الأسطورة الاحتلال والاستيطان تعبيراً عن نوستالجيا إلى زمن مضى.

تُسهم هذه الأسطورة، بدورها، في إعاقة التقدّم في مفاوضات السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، التي أصبحت تغطي عقدين من الزمن، دون نتائج حقيقية على الأرض. ومنشأ الخلل، كما يرى شينهاف، أن الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي ينطلقان من فكرتين على طرف نقيض. فالفلسطيني يفاوض بالعودة إلى ما وقع في العام ١٩٤٨، أي النكبة وما رافق قيام الدولة الإسرائيلية نفسها من ملابسات، وما نجم عنها من آثار كارثية، بينما يفاوض الإسرائيلي استناداً إلى ما وقع في العام ١٩٦٧، أي احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، وما رافقه من استيطان للأراضي، و»نزاع» على الملكية.

يعزو شينهاف الانقسام بين زمنين، زمن ما قبل العام ٦٧ وما بعده، وما ينطوي عليه من حنين إلى يوتوبيا ضائعة من ناحية، ومحاولات لاستعادتها، من ناحية ثانية، عن طريق مفاوضات مع الفلسطينيين لتسوية واقع جديد فرضه الاحتلال في ذلك العام، إلى فشل من جانب اليسار في فهم ما حدث في العام ١٩٤٨. ويرى، في هذا الشأن أن العودة إلى ذلك التاريخ كفيلة بفتح آفاق جديدة لحل الصراع في فلسطين وعليها.

ولا أعتقد أن إنشاء المجتمع والدولة الإسرائيليين قبل العام ١٩٤٨ كيوتوبيا ضائعة، وبالقدر نفسه التفاوض مع الفلسطينيين من منطلق العام ١٩٦٧ وما بعده، علاوة على تجاهل ما حدث قبل ذلك التاريخ، إنما يصدران عن فشل في فهم ما حدث في العام ١٩٤٨. بل هما، في الواقع، مقدمتان أولى وثانية في معادلة من معادلات المنطق الصوري، وهما، بهذا المعنى، ذريعتان متضافرتان في خطاب الإنكار.

وقد تنبه بنيامين بيت هالحمي، الأستاذ في جامعة حيفا، إلى هذه الحقيقة في كتاب بعنوان «الخطيئة الأولى» يعود إلى العام ١٩٩٣، فنّد فيه فكرة الحنين إلى ما قبل العام ١٩٦٧، باعتبارها محاولة من جانب اليساريين الإسرائيليين بشكل خاص، لإنكار وكبت مشاعر الخطيئة الأولى، أي ما حدث في العام ١٩٤٨.

الخطيئة التي «تسمم الدم وتفسد الأحلام»، ويتم التعاطي معها إما بالإنكار، أو بالتجاهل (يقول الإسرائيلي في الوقت الحاضر: وما شأني، لم أكن قد ولدت بعد، هذه أشياء تنتمي إلى الماضي، وما فات

مات). وفي المقابل لا يجد اليمين في إسرائيل صعوبة في عدم التعاطي مع ذلك الخطاب الاعتذاري والمُنافق، فيرى في كل مجابهة جديدة مع الفلسطينيين استكمالا لحرب العام ١٩٤٨، كما ذكر شارون عندما اجتاح المدن الفلسطينية في ربيع العام ٢٠٠٢.

أما التضافر بين المقدمة الأولى (أي اليوتوبيا) والثانية (أي التفاوض على حدود العام ١٩٦٧) فيتجلى في حقيقة أن حرب العام ١٩٦٧ كانت محاولة لحسم نتائج الحرب في العام ١٩٤٨، كما كانت حرب العام ١٩٨٢ على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان محاولة لحسم نتائج حرب العام ١٩٦٧. وقد نجحت المحاولة الأولى بعد العام ١٩٦٧ عندما تبنت الدول العربية برنامج إزالة آثار العدوان، وتبنت منظمة التحرير الفلسطينية حل الدولتين، بينما أحبطت الانتفاضة الأولى أهداف الحرب في العام ١٩٨٢.

والواقع أن ما يُعيد الأمور إلى نقطة الصفر، أي إلى العام ١٩٤٨، وما يُلغي التقسيم المُفتعل لزمنين مختلفين، هو الفشل في حسم نتائج حرب العام ١٩٦٧، وهذا ما يحاول اليمين تداركه إذ يشترط اعتراف الفلسطينيين بالدولة اليهودية مقابل التفاوض على دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ثمة مسألة أخرى تبرر اليوتوبيا وتتمثل في خسارة النخبة الاشكنازية لموقع الصدارة بالمعنى السياسي والاقتصادي (مع بقاء مواقع ثقافية حصينة ما تزال مؤثرة حتى اليوم) منذ العام ١٩٧٧.

المهم في كل ما يُقال أن هذا الكتاب يُسهم في تفكيك أسطورة اليوتوبيا ما قبل العام ١٩٤٨، ويزعزع مكانة «الخط الأخضر» الفاصل في خطاب اليسار الإسرائيلي بين زمنين مُفتعلين. وفي هذا السياق يسعى شينهاف إلى استكشاف آفاق جديدة لتسوية الصراع في فلسطين وعليها انطلاقاً مما حدث في العام ١٩٤٨. أسطورة «الخط الأخضر» ليست نتاج ذاكرة مشوّشة، بل صياغة أيديولوجية تعوزها البراءة لواقع يُراد لها أن تُسهم في طمس ملامحه.

وعلى الرغم من حقيقة أن الكتاب موّجه في الأساس إلى جمهور إسرائيلي، ويشكّل جزءاً من سجالات الحقل الثقافي الإسرائيلي بشأن هوية الدولة والمجتمع، إلا أن تشابك واشتباك الوجود الديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي للفلسطينيين والإسرائيليين يجعل من الفلسطينيين طرفاً رئيساً في هذه السجالات، ومن هنا يكتسب الكتاب أهمية خاصة بالنسبة للقارئ الفلسطيني والعربي بشكل عام.

ح. خضر